الفصل التاسع والعشرون

ذكر اهل المقامات من المقربين وتمييز اهل الغفلة المبعدين

فإذا كان العبد بوصف مانكرنا، كان كما قال الله تعالى والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهادتهم قائمون. وقال بعض العارفين عُمُر العبد أمانة الله تعالى عنده يسأله عند موته، فإن كان فرّط فيه ضيّع أمانة الله تعالى وترك عهده، وإن راعى أوقاته فلم تخرج ساعة إلاّ فى طاعة الله حَفَظ أمانته ووفّى بعهده، فله الوفاء من الله على الوفاء. كما قال سبحانه وتعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون، أى فى تضييع العهد وفى ترك الوفاء. وكما قال تعالى أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه، أى شهد مقام الله تعالي منه بالبيان فقام بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زيّن له سوء علمه واتبّع هواه فآثره علي طاعة مولاه، بل هذا قائم بشهادته متبّع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. وكان كمن وُصِف فى قوله تعالى أولئك الذين يَدْعُون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه. وكمن مدحه بحقيقة الإيمان في قوله تعالى وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، أى علامته ودلائله، وعلى ربهم يتوكلون، أى به يثقون، وإليه ينظرون، وعليه فى كل حال يعتمدون، ولديه من كل شئ يطمئنون، وعنده دون كل شئ يوجدون. ثم قال سبحانه أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجاتٌ عند ربهم الآية. وليس أهل الحقائق من المتوكلين، الذين مدحهم الحق بالحق، وأعدّ لهم الدرجات العلى والكريم من الرزق، كمن نكره بعدهم فقال وإن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ماتبيّن لهم، مع قوله مايجادل فى آيات الله إلاّ الذين كفروا، فجعل حال هؤلاء وصفاً مُشَبّها لمقام أعدائه لما بقى عليهم من أهوائهم، وجعل مقام الصالحين بمعنى من وَصَفهم فى الآية بحقيقة زُهدهم، فقال تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، فهو العلى وأحباؤه الأعلون، وإنما كانوا أعلين لأن الأعلى معهم، وكنا نحن الأدنين لأن الدنيا عندنا.

وقال الله سبحانه فى وصف من أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا، إذ أمر الحبيب بالإعراض عنه لأنه طلب الأدنى عاجلا، أو سوّف بالمغفرة آجلا، لقوّة جهله وضعف يقينه، فقال تعالى يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا، وقال فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. وقال فى وصف الصادقين المؤمنين ـ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وقال فى نعت غيرهم يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون. كَبُر مقتا عند الله. فشتّان بين من وُصِف بصدق العهد وبين مَنْ ذُكِرَ بالخلف وعُرِّض للمَقْت. وقال فى وصف طائفة ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين، فخص أولياءه بترك اتّباعه، وأدخل بعض المؤمنين في تصديق ظنه واتّباعه، إلا فريقا فهم الصدّيقون والشهداء والصالحون، وحَسُنَ أولئك رفيقا، وهم المتوكلون المؤمنون حقا الذين قال إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. وليس من باعَ ماله ونفسه محبةً لمولاه كمن لم يسأله مولاه دون نفسه لئلا يُحفيه فيُخرج ضِغْنَه عليه، كما قال لطائفة من المؤمنين يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إنْ يسألْكُمُوها فيُحفكم تبخلوا ويُخْرِج أضْغَانكم، والإحفاء الاستقصاء، أى إن سألكم سأل الجملة كلها وأحب منكم الزهد فى نفوسكم بعدها. والإضغان جمع ضِغن وهو الحقد، تقول فلستم فى مكان سؤال إذ لا يكون البخيل زاهداً، لأن أوّل الزهد الجودُ، فمن لم يَجُدْ لم يزهد، ومَن لم يزهد فى الدنيا لم يحبه المولى لأنه محب لِمَا يُبغض ومريد لما لايحب، فلم يعامل مولاه بأخلاقه، ولم يوافقه فى مرضاته، فباعده وحجبه عن مشاهدة أوصافه، كما قال تعالى تريدون عَرَض الدنيا والله يريد الآخرة، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم المُبَلِّغ عن المالك، إذا أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا. ولا تقدر أنْ تصف حشو قلوب هذه الطائفة من المؤمنين الذين وصفهم المؤمن أنْ لوسألهم أموالهم ظهرت عليهم أضغانهم، لأنهم من الله فى اغترار بما ألبسهم من إلاظهار، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا، إلاّ أنْ الله تعالى لا يسأل إلاّ من يحبه، إكراماً له ممن يعلم أنه يسارع إليه بجملة ماسأله، لأنه كريم جواد لايكبر عنده شئ، إنْ سأل سأل الكلية وهو المال والنفس، إلاّ أنه لايسأل إلا من خلّقه بخُلق من أخلاقه، فمتى لم يكن على العبد سواه شيء سأله محبوبه كل شئ، ومتى عَظُم فى قلبه العَرَض الفانى وهو ضغين لم يسأله شئ، فإذا لم يبق للعبد فى نفسه نَفْساً، ولا من ماله مِلْكا، كان الجواد عِوَضاً له من ماله، وكان الجبار عِوَضاً له من نفسه، إلاّ أنّ اللّه سبحانه لم يذكر إياه فى العِوضَ من النفس وذكر الجنة فى البدل عن المال، لئلا يدخل تحت حكم وهو الحاكم، وكيلا ينضم إلى عوض فيكون شفعاً وهو الفرد، فأخفى نفسه وهو الدليل، وذكر خَلْقَه وهو إليه السبيل، فهذا فهْمُ أوليائه عنه، وهذه علامة المحبة الخالصة التى لا شرك فيها لسواه، ولا دخل عليها من غيره إياه. ولا يصلح أيضاً أن يكشف عن وصف هؤلاء المحبين لأن حالهم يَجلّ عن الوصف، ومقامهم يجاوز علوم العقل والوقت، إلا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عز وجل وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، وبقوله تحيتهم يوم

يلقونه سلام، مع قوله ولكم فيها ما تدّعون نُزلاً من غفور رحيم، وقوله فلما إنْ كان من المقربين فَرَوْح وريحان، وأحكم ذلك بقوله تعالى وهو وليُهم بما كانوا يعملون، وبقوله تعالى هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، ففيه وصفٌ لأهل الولايات والحب، ومدحٌ لأهل الدرجات والقُرب، بقوله بصير بما يعملون، أى لذلك جعلهم درجات عنده، ولقوله وليُهم بما كانوا يعملون، بما تولاّهم به وقرّبهم منه. وفيه أيضاً ذمّ المنافقين على القراءة الأخرى والله بصير بما تعملون، فقد أبصر أعمالكم أنتم فلم يجعلكم مثلهم، إذ لم تكن أعمالكم كأعمالهم، فهذا كما قال فعلِم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً ، ثم قال فى وصف قلوبنا والله يعلم ما فى قلوبكم، وكان الله عليماً حكيماً، ثم قال فى فصل من القول ليس بهزل، سوّى بين هؤلاء وهؤلاء، إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً، ثم قال فى ضد أولئك كلاماً فاصلاً، لمفصّل مفسّر للمجمَل، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم بعد أن لا يجعل فيهم خيراً لتولّوا وهم معرضون، أى ليس لهم فيه شئ ولا لهم منه نصيب، لأنه لم يجعل عندهم مكاناً لخير فيوجد فيه خير، فكان هذا فصل الخطاب وبلاغاً لأولى الألباب شهد لهم بذلك، إذ قال أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، فأيس المؤمنون من هداية هؤلاء، فلم يرجوا منهم مجاهدة فيه أبداً، لأن الله تعالى لا يهدى من يضل. وقيل ييأس لغةٌ بمعنى يعلم، أى فقد علموا مما أعلمهم الله تعالى. ويشهد لهذا المعنى الحرف الآخر، لأنه بمعناه أفلم يتبين الذين آمنوا فبيّن لهم بما بين المبين، فسلّموا له وأقبلوا عليه، وأعرضوا عنهم فسلّموا منهم، فكذلك قال الولى الحميد، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً، وقال تشابهت قلوبهم فيتبعّون ما تشابه منه، فكم بين من ثبت قلبه فرسخ العلم فيه، وبين من أزاغه فمال إلى فتنة التأويل يبتغيه. وشتّان بين من تولاّه بنفسه إذ صلح له وبين من ولاه نفسه إذا أعرض عنه، فهذه مقامات المبعدين، كما تلك مقامات المقربين، فقد دخلوا تحت حكمين لم يخرجوا منهما، أعلاهم دخل تحت فضله، وأدناهم لم يخرج من عدله. وقد أجمل سبحانه وصفهم بقوله ليُجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله، وقال فى ذكر العموم ليُجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، فخص أولياءه بالفضل، وعمّ خَلْقَه بالعدل، فكم من قلب لا يشهد إلاّ الله ولا يسمع إلاّ منه ولا يتأله إلاّ إليه، والله هو الأغلب على همه والأقرب إلى قلبه، وبين قلب حشوه الخَلْقُ، وهمّه الرزق، لا ينظر إلاّ إليهم، ولا يطمع إلاّ فيهم، ولا ينظر إلاّ هَمّ الخَلْقَ أغلب شىء عليه، والخلق أقرب شىء إليه، فهذا من المبعدين بهم لأن البعد صفتهم. وظهور النفس عليه وتَحكُم سلطانها فيه مكان البعد الذى يوجد

البعد معه، والأوّل من المقربين به لأن القرب صفته، وخنوس نفسه عنه وتسخيرها له مكان القرب الذى يوجد القرب عنده، فذلك من السابقين إلى ربه، والمبعد مثبط بنفسه عن ربه. وقد قال تعالى فلا تدع مع اللّه إلها آخر فتكون من المعذبين، فالبعد حجاب والبُعد فى عذاب، والقرب نعيم والمقرّب على مزيد. ألَمْ تسمع قوله تعالى في تعذيب المحجوب كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، ثم إنهم لصالو الجحيم. وقال فى ترويح المقرّبين فأمّا إنْ كان من المقربين فروْح وريْحان وجنة نعيم. روح بقريب، وريحان من حبيب، وجنة نعيم بقرب مُنعم. وقال المروح بالقرب المحيا بالحضور:

فروْحى وريْحانى إذا كنتَ حاضرا * وإنْ غبتَ فالدنيا علىّ محابس

إذا لم أنافس في هواك ولم أغِرْ * عليك ففيمن ليت شعرى أنافس

وقال المكروب بالبُعد المغصّص بالفقد:

فكيف يصنع مَنْ أقصاه مالكُه * فليس ينفعه طِبُّ الأطباء

من غَصّ داوَى بشُرب بالماء غُصّته * فكيف يصنع من قد غَصّ بالماء

وشتّان بين عبد منقطع إلى ربه يخدمه، وآخر منقطع لخدمة الخَلْق يعبدهم، وكم بين عبد منقطع عن الناس وبين عبد موصول به الوسواس، وشتّان بين عبد منقطع بالشوق إلى المولى، وبين عبد منقطع بالهوى معانق للدنيا. فهذه مقامات المقربين بالحسنى وأضدادها مقامات المبعدين بالسوء، فإذا كان العبد على وصف من الحقيقة وفي مقام من التقوى استحق الثناء من مولاه لتحققه بالوصف، ونال القرب من القريب لِتَبَعُّده عن حظوظ النفس. وفى حُسن الثناء من العظيم الأعظم غاية الطالبين ونهاية رغبة الراغبين. ولا يكون ذلك إلاّ لأوليائه المتّقين، وحزبه المُفلحين، وعباده الصالحين. وهم أهل القلوب السليمة الطاهرة، ونوو الجوارح الخاشعة الذاكرة، وأولو الألباب الراجحة الفاخرة، وهم ثلاث طبقات من مُقَرّبى أصحاب اليمين، أهل العلم باللّه تعالى، وأهل الحب للّه تعالى، وأهل الخوف من اللّه تعالى، فهؤلاء خصوص أوليائه المقرّبين، استحضرهم فحضروا، واستحفظهم العلم فحفظوا، واستشهدهم عليه فشهدوا، فهم الأدلة منه عليه، وهو دليلهم إليه، وهم جامعو العباد به، وهو جامعهم عنده لديه، أبدال الأنبياء والرّبانيون

من العلماء، أئمة المتقين وأركان الدين، أولو القوة والتمكين الذين كشف لهم الكتاب المستبين، وهداهم إليه الطريق المستقيم عليه. وهم المنظور إلى قلوبهم كفاحاً، والمقصودون بالمزيد والتُحف مساءً وصباحاً. ومَنْ سواهم من عموم المؤمنين من القرّاء والعبّاد، وأهل المجاهدة والزهد والأوراد، قد أعطاهم الولايات، وفرّقهم في الأعمال والسياحات، وأظهر لهم الآيات، تسكيناً لقلوبهم بها، وطمأنينةً منهم إليها، لئلا تدخل عليهم الشبهات فيهلكوا، ولا تجذبهم الشهوات فيرجعوا، فشُغلوا بالإظهار عن الظاهر، وحُجِبوا بالظواهر عن الباطن، واغتبطوا بالحجاب، وسكنوا إلى الأسباب، وعكفوا على المقامات، واستتروا بالملكوت والآيات، فهم مغبوطو الأموات من أهل الدنيا، وهم مرحومو الأحياء من أهل العلّى الأعلى. لأن قربَهم بَعُد عند المقربين، وكشفَهم حُجِبَ عند المشاهدين، وعطاءَهم رُدّ عند المواجهين، إلاّ أن الله تعالى نظر إليهم لمّا نظروا لنفوسهم، حكمةً ورحمةً منه لهم، فسكنهم في حالهم، ورضاهم بمقامهم، كيلا تُشتّت قلوبُهم ولا تتحير عقولهم.

والسابقون الأوّلون هم الوجهة العليا والمتمسكون بالعروة الوثقى. نظروا إليه سبحانه وتعالى به فنظر إليهم منه، فهم كما وصفهم. ومن الناس من يشترى نفسه إبتغاء مرضاة الله، لا يرجعون إلى مال، ولا ينظرون إلى حال، يحبهم ويحبونه، رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه، فهم كما وُصفوا في الكتب السالفة. قال الحواريون روُح الله صفْ لنا أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال هم الذين نطق بهم الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وعاينوا أجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يُميتهم، وتركوا منها ماعلموا أن سيتركهم، فصار تركُهُم منها فواتاً، وفرحهم بها حرماناً. ماعارضهم منها رفضوه، وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه. خَلقَتْ الدنيا عندهم فلم يجددوها، وخَرِبَت فيما بينهم فلم يُعَمّروها، وماتت فى صدروهم فلم يحيوها. قدّموها فبنوا بها آخرتهم، أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب، وعندهم أعجب الخبر العجيب. وقال عز وجل فى وصفهم ومن أحسن من الله حديثا. والرّبانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، وقال تعالى شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط. وفيها مَقْرأ غريب، بمعنى الجمع للشهداء، وكأنه جُعِلَ وصفا لما تقدم من ذكرهم فى قوله تعالى الصابرين والصادقين، إلى قوله

والمستغفرين بالأسحار، شهد الله أنه لا إله إلاّ هو، وقال كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب. فهذا وصف يزيد علي كل وصف، ويستغرق نعت الواصفين، ويجمع هذه المقامات السبعة من المراقبة والمشاهدة حالات عن مقامين، مدار المقامات كلها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما، فأحدهما الخوف عن مقام العلم، والحال الثانى الرجاء عن مقام العمل، فمن كان مقامه العلم بالله كان حاله الخوف منه، ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة له. ألَم تسمع إلى قوله تعالي إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقوله فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر

قال الله سبحانه تعالى ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، أى ألقى فيها وقذف فيها. وقال عز وجل ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه. وقال فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله. وقال تعالى من شر الوسواس الخنّاس الآية. وقال إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا إنما يدعو حزبه. وقال تعالى استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. وقال سبحانه مخبراً عن العدوّ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم إلى آخر الآية. وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الشيطان قعد لابن آدم بأطْرُقِه: فقعد له بطريق الإسلام، فقال أتسلم وتَذَر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهِجْرة فقال أتهاجُر فتَذَر أرضك وسماءك، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو جُهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتل، فتُنْكَح نساؤك ويُقَسّم مالُك، فعصاه فجاهد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك فمات كان حقا على الله تعالى أن يُدخله الجنة. وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال ولأضلنّهم ولأمنينّهم ولآمرنّهم إلى آخر الآية. وروينا أن عثمان بن أبى العاص قال يا رسول الله، حالَ الشيطانُ بيني وبين صلاتى وقراءتى، فقال ذلك الشيطانُ يقال له خِنزب، إذا أحسسته فتعوّذ بالله منه، واتفُل عن يسارك ثلاثا. قال ففعلت ذلك فأذْهَبَه الله تعالى عنى.

وفى الخبر أن للوضوء شيطانا يقال له الوَلْهان فاستعينوا بالله منه. وقد روينا أن الشيطان